مجلة جامعة تكريت للعلوم القانونية والسياسية
مجلة علمية دورية محكمة
السنة/6 العدد/21
اذار 2014 – جمادي الاولى 1435
ISSN: 2073 1140

ملامح النظام السياسي في فكر ابن خلدون

أ. م. د. وليد سالم محمد
كلية العلوم السياسية / جامعة الموصل

وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان

College of law - University of Tikrit

ملامح النظام السياسي في فكر ابن خلدون

أ. م. د. وليد سالم محمد
كلية العلوم السياسية / جامعة الموصل

الملخص

كانت نظرية العصبية في فكر ابن خلدون إحدى الركائز التي استند عليها في تحليل نقاط القوة أو الضعف في المجتمع من جهة ، وفي قوة وضعف السلطة المتحكمة في هذا المجتمع من جهة أخرى، وعلى هذا الأساس انصب تركيزه على دراسة الدور السياسي الذي يمكن أن تؤديه العصبية في المجتمع والنتائج السياسية التي تترتب عنها، ولهذا السبب شكلت العصبية عنده حجر الأساس في نشوء السلطة ونظامها السياسي، لذا يحاول هذا البحث الكشف عن ملامح النظام السياسي من خلال تحليل تلك الأفكار.

المقدمـــــة

كثيرة هي الشروحات والنظريات التي تبحث في قيام المجتمعات ونشأة السلطة فيها ، وقد اجمع الباحثون أن الإنسان اجتماعي بطبعه ولايستطيع العيش بمعزل عن الآخرين فلابد من جماعة يستطيع من خلالها ممارسة حياته ، وهكذا جاءت نظريات العقد الاجتماعي لتصب في هذا المجال من جهة ، ولتضفي الشرعية حول وجود السلطة السياسية من جهة أخرى، وبذلك أضحت السلطة السياسية ضرورة اجتماعية يفرضها واقع المجتمع مهمتها الحفاظ على المجتمع والدفاع عنه ضد المخاطر التي تهدد وجوده واستقراره .

وانطلق ابن خلدون من هذا المنطلق إذ لابد من سلطة تحكم المجتمع وتدفع عنه عدوان الأفراد بعضهم عن البعض الآخر ، وهنا أضحت السلطة أداة ضبط وتنظيم المجتمع وبهذا أصبحت مظهراً من مظاهر الانتظام والترابط الداخليين ناتجاً عن فعل الإرادة الإنسانية في محيطها الاجتماعي.

وعليه فإن هذه الأداة التي يقع على عاتقها ضبط وتنظيم سير الحياة في المجتمع هي القوة المتحكمة في حركة المجتمع ، فهي اذاً الجهة التي تمتلك وسائل الإجبار المادي ومن هنا كانت أبحاث ابن خلدون تتعلق بتحليل العوامل الموجِدة لهذه القوة وتأثير العوامل الاجتماعية والثقافية والنفسية المؤثرة والمتفاعلة مع تلك القوة.

ولما كان النظام السياسي هو مجموعة المؤسسات التي لها علاقة بسلطة تنظيم المجتمع فهذا يعني أن النشاط السياسي يدور حول السلطة التي تمتلك وسائل الإجبار المادي المشروع ، ومن هذه الفرضية تناول ابن خلدون بالبحث والتحليل النظام السياسي والسلطة السياسية، على الرغم من عدم وجود هذا اللفظ في أبحاثه، بيد أن الأخيرة لم تبتعد عن تحديد ملامح النظام السياسي عنده، وهي الفرضية ذاتها التي اعتمدناها في بحثنا .

وعليه قسمنا البحث إلى :-

المبحث الأول : العصبية ونشأة النظام السياسي

المبحث الثاني : السلطة السياسية والصراع

ومما يقتضي التنويه أننا استخدمنا في بحثنا مصطلح الدولة ونحن هنا لا نقصد به الحيز الجغرافي الذي يحيا عليه الشعب بقدر ما نقصد به القوة المتحكمة في توجيه وإدارة شؤون المجتمع.

ونسأل الله التوفيق ..

منهجية ابن خلدون

ولد ابن خلدون في تونس عام 1332م من عائلة ذات أصل يماني ، ودرس العلوم الشرعية في مطلع حياته ثم اهتم بدراسة الفلسفة والمنطق خلال حياته العملية خاض معترك الحياة السياسية وتقلد مناصب هامة مكنته من دراسة شؤون الدول ونظمها السياسية وتقاليدها العامة في الحكم دراسة واقعية فقيم الوقائع واستخلص منها العبر والنتائج ، وعاصر انحلال وتدهور الدولة العربية في المشرق والمغرب فكانت أطروحاته ترجمة للواقع [1].

ومن خلال اهتمامه بالفلسفة اطلع على أفكار أفلاطون وارسطو وغيرهما وكانت خلافاً لاتجاهاته وطريقة تفكيره فهو لا يتوقف عند قضية عجز العقل عن فهم الأمور الإلهية كما قال كثير ممن سبقه بل تعداها إلى قصور العقل عن فهم الأمور الاجتماعية فضلاً عن الأمور الإلهية [2].

وبكلمة أخرى أن بن خلدون كان يرى " أن التنظيم السياسي لايمكن تغييره بصورة مجدية أو على الأقل تشذيبه من العيوب التي تعترضه بواسطة العقل فحسب، فلا يمكن إقامة نظام سياسي بناءً على فكرة مرسومة مسبقاً وإنما يجب استقراء حوادث التاريخ وترتيبها ثم تصنيفها وتركيبها على نحو منهجي مدروس، فالتاريخ(بوصف بن خلدون) قبل كل شيء يهدف إلى دراسة حالة الإنسان الاجتماعية والوقائع التي ترتبط بها على نحو طبيعي [3] .

إن فكر ابن خلدون لايمكن أن يُفهم إلا بالنظر إليه ككل ، ولما كان الكل يستعصي الفهم إلا من خلال الأجزاء لذا وجب فهم الجزء لكي يُفهم الكل مع التوكيدعلى ضرورة الاحتفاظ بوحدة الكل وسماته الخاصة [4].

1- صادق الاسود، علم الاجتماع السياسي ، مطابع جامعة الموصل 1986، ص 43
2- علي الوردي ، منطق ابن خلدون، ط2، دار كونان ، لندن 1994 ، ص64
3- صادق الاسود ،المصدر السابق ،ص43
4- محمد عابد الجابري ،فكر ابن خلدون –العصبية والدولة ،ط3، دار الطليعة،بيروت 1982 ، ص18

ومن هنا كان تركيز ابن خلدون على دراسة العصبية القبلية – التي تعد بمثابة الهوية في علم الاجتماع الحديث – المحور الأساسي الذي تكاد تستند عليه جميع أبحاث ابن خلدون [1] .

بكلمة أخرى لم تكن منهجية بن خلدون مركزة على تحليل العوامل الداخلية أو بكلمة أدق مركزة على التحليل العلمي للشروط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المؤثرة في سير حياة المجتمعات بمعزل عن التأثيرات الخارجية المؤثرة فيها [2].

وبذلك فإن الحقيقة التاريخية عند بن خلدون لها صفات خاصة وتتطلب منهجاً خاصاً بها تقتضيه طبيعة الظواهر الاجتماعية ذاتها، فالسياسة وتبدل الأحوال والظروف والعلل والأسباب البيئية والجغرافية والمناخية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية والسكانية تؤثر كلها في حدوث وتشكيل هذه الظواهر التي لابد من أخذها بنظر الاعتبار حين كتابة التاريخ وتقرير الواقعة التاريخية [3].

ومن هنا كانت منهجيته معتمدة على تحليل العوامل الخارجية المؤثرة في سير حركة العوامل الداخلية للواقعة الاجتماعية وانعكاساتها على الحياة المجتمعية بشكل عام بما فيها من نظام حكم وخصائص مجتمعات ومنظومة علاقات.

---

1 - صادق الاسود ، المصدر السابق ،ص44

2- أيف لاكوست ، العلامة ابن خلدون ،ترجمة ميشال سليمان ، ط1، دار ابن خلدون ، بيروت 1974،ص6

3- محمد سعيد طالب ،ابن خلدون رائد الفكر الحديث ،ط1، الاهالي للطباعة والنشر ،دمشق 2001 ،ص56

المبحث الأول
النظام لسياسي- العصبية والدولة

لما كانت عملية تنظيم النشاطات السياسية للأفراد هي إحدى نشاطات النظام السياسي، فهو إذا تركيب دائم للعلاقات الإنسانية ومن ثم فهو يشتمل على قدر مهم من السلطة والسيطرة والسلطان، وهذا يعني انه مجموعة المؤسسات التي تحوي النشاطات التي لها علاقة بسلطة تنظيم المجتمع .

ومن الإطار الفكري لهذه المفاهيم عَبَرَ بن خلدون عن نزعته الفلسفية والعلمية في البحث عن الأسباب والعوامل التي تؤثر في نشوء الدولة وتطورها وانقراضها من خلال تحديد النواميس الاجتماعية التي تؤثر في ذلك [1]، ومن هنا انطلق في تفسير نشوء السلطة والنظام السياسي أو الدولة إلى القول بضرورة اجتماع النوع الإنساني والذي بدونه (الاجتماع) لايكتمل وجودهم ولاتتم الغاية من خلقهم ، وهذا الاجتماع لابد له من وازع يدفع بعضهم عن بعض [2]. وبذلك فهو ينطلق من بديهية طبيعية وهي الحاجة إلى وازع أو إلى سلطة أو إلى نظام سياسي أو إلى دولة يقع على عاتقها مهمة حفظ الأمن والنظام داخل المجتمع للمحافظة على الوجود الإنساني، وهنا أصبحت الدولة والنظام السياسي أداة ضبط وتنظيم للعلاقات الإنسانية.

مما دفع بعض الباحثين إلى تعليل نشوء الدولة سبباً لنشوء الحضارة ، فالتعاون الاجتماعي الذي تتطلبه الحياة الإنسانية يفرض نوعاً من الحكم المنظم له سلطته وتأثيره في تنسيق فاعليات الأفراد وتدبير شؤونهم العامة وعلاقاتهم فيما بينهم وبين المجتمعات أو الدول الأخرى ، وهنا أضحت الدولة بنظامها السياسي أو سلطتها السياسية مظهراً من مظاهر الانتظام والترابط الداخليين ناتجاً عن فعل

1- ساطع الحصري ، اراء واحاديث في التاريخ والاجتماع، في((الاعمال القومية لساطع الحصري)) ،مجلد2،ط2، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت 1990،ص121

2- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر) ج1،ط1، دار ابن حزم ،بيروت 2003 ،ص34-35

الإنسان في محيطه الطبيعي والاجتماعي ومن ثم كان نشوء الحضارة متعلقاً بنشوء الدولة [1] .

العصبية ودورها في بناء المجتمع السياسي

فالمجتمع لايمكن أن يكون بدون وجود السلطة (الوازع) ، إلا أن بن خلدون عندما صب جهده على دراسة هذا الوازع فأنه ركز دراسته على الجانب السياسي لهذا الوازع، ومن هذا ركزت دراسته للعصبية على مفعولها السياسي أو الدور السياسي الذي يمكن أن تؤديه في المجتمع والنتائج السياسية التي تترتب عنها في أعلى درجات وجودها وأرقى مراحل تطورها[2].

والعصبية بوصفها رابطة اجتماعية –نفسية فهي تشكل القوة الجماعية التي تمنح القدرة على المواجهة، ومن ثم فان الأساس الحقيقي والفعلي الذي تقوم عليه هو المصلحة المشتركة الدائمة للجماعة [3]، بمعنى أخر انه لاينظر للعصبية على أنها رابطة اجتماعية ولكن ينظر لها من حيث الدور الذي تقوم به في الدفاع عن الجماعة[4] ، وهو مافسره بعض الباحثين بان العصبية لاتعني التضامن الاجتماعي بوجه عام بقدر ماتعني شكلا دقيقا جدا من أشكال التنظيم السياسي يتضمن تسلسلاً تراتبياً من شروطه الأساسية العمل القيادي لرئيس تدعمه عائلته، فهي ليست حالة وانما سياسة [5].

لذا نجد أن العصبية عند بن خلدون شكلت الرابط والأساس في منظومة العلاقات بين النظام السياسي والمجتمع من جهة، وبين النظام السياسي والنظم

1- قسطنطين زريق ،في معركة الحضارة في ((الاعمال الفكرية العامة)) ، المجلد 2،ط3، مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت 2001،ص40
2- محمد عابد الجابري ،المصدر السابق ،ص250
3- المصدر نفسه ،ص254-260
4- المصدر نفسه ،ص246
5- ايف لاكوست، المصدر السابق،ص138وص135

السياسية الأخرى أو بين المجتمع والمجتمعات الأخرى من جهة ثانية وبذلك شكلت أساسا لنظرية التضامن والصراع في فكر ابن خلدون[1].

أثر الدين في نشأة النظام السياسي

ولما كان المجتمع الذي تناوله ابن خلدون بالكشف والتحليل هو مجتمع ذي سمة قبلية لذا كانت عقيدة التلاحم المتأتية من القرابة هي المترجم الفعلي لعقيدة التضامن (العصبية)، ومن هنا كانت هذه العقيدة حجر الأساس في نشوء النظام السياسي(الدولة) وفي تحصيل الشرعية السياسية له إذ بدون هذه العصبية لايمكن تحقيق الشرعية السياسية للنظام، وهو مادفع بن خلدون للاعتقاد أن تعدد الولاءات يُفقد النظام السياسي أساس شرعيته ""فالأوطان الكثيرة العصائب(القبائل) قل أن تستحكم فيها دولة"" [2] وهنا تصبح الولاءات المتعددة والمتحالفة عاملا معرقلا لتأسيس الدولة ونشوء النظام السياسي فيها [3]، وهو بالرغم من اعتقاده أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية بيد انه يعود مستدركا أن الدعوة الدينية من غير عصبية لاتتم.[4]

بمعنى أخر أن العصبية تتقدم في إطار عملية نشوء الدولة والنظام السياسي كأداة ووسيلة سياسية يتراوح دورها بين درجات مختلفة من التأثير والفاعلية وفقا لظروف وطبيعة وقيم كل مجتمع، بيد أن العصبية لوحدها بوصفها أساسا لنشوء الدولة أو النظام السياسي لاتكفي لتسويغ قيامها على الصعيد الأخلاقي، إذ إنها كفكرة مجردة قد تكون النقيض لمفهوم الخير العام المستمد من الشريعة المنزلة لذا فان نشوء نظام سياسي مستقر يستلزم وجوب تظافر العصبية مع الخير العام والشريعة إذ بدونه لايمكن لنظام سياسي ان يستقر، ولايستبعد بن خلدون وجود

1- محمد سعيد طالب ،المصدر السابق،ص124
2- عبد الرحمن محمد ابن خلدون ،المصدر السابق ،ص124
3- ساطع الحصري ،دراسات عند مقدمة ابن خلدون ،دار المعارف ،مصر 1953،ص345
4- عبد الرحمن محمد ابن خلدون ،المصدر السابق،ص124

عوامل أخرى تُسهِم في نشوء واستقرار الدولة والنظام السياسي ويأتي الدين في مقدمة هذه العوامل[1] ، إذ إن العلاقة بين الدين والعصبية علاقة تكامل وتآزر فالدين يعمل على إزالة وإذابة الأنا الفردية والقبلية ويحول المجتمع إلى مشروع حضاري تذوب فيه العصبية وترتفع فيه العلاقة الأخوية بين البشر [2] .

ومن هنا فان بن خلدون في تسويغه لنشأة النظام السياسي لم ينسى دور الدين وأثره في إضفاء الشرعية السياسية على النظام السياسي فهو ضمانا أكيدا لاستقرار الدولة ونظامها السياسي وثباتهما، فهو يقيم العلاقة بين الأفراد على أسس رابطة أوسع شمولا وأكثر عمقا من رابطة العصبية [3]، وبكلمة أخرى فإن الأساس الذي يستند إليه النظام السياسي هو القوة سواء تجسدت هذه القوة في العصبية أم في المال أم في الأعوان أم غير ذلك فـ ""ليس المُلك لكل عصبية وانما المُلك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجبي الأموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور ولاتكون فوق يده يد قاهرة وهذا هو معنى المُلك"" [4].

وفي بحثه في ماهية الدولة يذهب ابن خلدون إلى أن الدولة هي إدارة المُلك والدفاع عنه ، فالمُلك في مرحلة الحضارة محتاج إلى من يعاونه في الحكم والدفاع عنه فتنشأ المرافق المختلفة كالقضاء والجباية والجيش والأسطول، وتلك هي مهام النظام السياسي. [5]

وهكذا نجد أن الحاجة الاجتماعية(عند بن خلدون) هي التي أوجدت الدولة والنظام السياسي وكانت سبباً لازماً للمدنية والحضارة ، فالدولة بوصفها صورة

1- رياض عزيز هادي ،مفهوم الدولة ونشوئها عند ابن خلدون ،مجلة العلوم القانونية والسياسية ، كلية القانون والسياسة، جامعة بغداد العدد (3) السنة 1977،ص230
2- عبد الحليم عويس ،الفكر الخلدوني في العصبية والعروبة، سلسلة كتاب الامة ،معلومة وردت على شبكة الاتصالات الدولية (الانترنت)،الشبكة الاسلامية،ص2
3- رياض عزيز هادي ،المصدر السابق،ص231
4- عبد الرحمن محمد ابن خلدون ،المصدر السابق ،ص142
5- جهاد تقي صادق ، الفكر السياسي العربي الاسلامي ،ط1،مديرية دار الكتب ،بغداد 1993،ص13

للعمران ظاهرة تلازم مادة العمران (الاجتماع الإنساني) فالدولة دون العمران لاتتصور والعمران دون الدولة والمُلك (النظام السياسي) متعذر.[1]

إن تحليل ابن خلدون للنظام السياسي جاء عميقا جدا فلما كان النظام السياسي هو مجموعة المؤسسات التي تحتوي النشاطات التي لها علاقة بسلطة تنظيم المجتمع فهذا يعني أن النشاط السياسي يدور حول السلطة التي لها الحق في كيفية تنظيم المجتمع وتحديد صيغة هذا التنظيم والوسائل المستخدمة وان صيغة إقرار هذه النشاطات هي التي تسمى بالنظام السياسي، وبهذا المعنى فان النظام السياسي هو مجموعة الأُطر القانونية التي تغلف مؤسسات ممارسة السلطة فهو لايتضمن المؤسسات الحكومية كالهيئات التشريعية والتنفيذية والقضائية فحسب وإنما يشمل البنى الاجتماعية في جوانبها السياسية بما في ذلك البنى التقليدية القائمة على أساس القرابة والنسب.

ومن هنا نلاحظ مدى اهتمام ابن خلدون في جعل العصبية هي حجر الأساس الذي قامت عليه الدولة والنظام السياسي.[2]

و بالرغم من مضي أكثر من ستة قرون على رحيله إلا أن تحليلات ابن خلدون مفعمة بالحيوية والواقعية إلى يومنا هذا، وهو وإنْ كان انطلق في تحليلاته من واقع المجتمع العربي الاسلامي بيد انه لم يتوقف عند حدود هذا المجتمع بل تجاوزه إلى المجتمعات غير الإسلامية الأخرى، فهو يرى انه لابد أن تكون هناك ستراتيجية محددة المعالم واضحة الأهداف يعمل بهديها النظام السياسي للوصول إلى غاياته وبدونها لايكون له البقاء ""فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها... وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ولايتم استيلاؤها"" [3] .

1- عبد الرحمن محمد ابن خلدون ،المصدر السابق ،ص286
2 - صادق الاسود،المصدر السابق ص197
3- عبد الرحمن محمد ابن خلدون ،المصدر السابق ،ص143

ثم يحاول ابن خلدون أن يُفَصِلْ في المصدر الذي يبين أساس حق الحكم عندما يقول ""انه لابد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون إليه، وحكمه فيهم تارة يكون مستندا إلى شرع منزل من عند الله، يوجب انقيادهم إليه، إيمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه، وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها مايتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم""[1]. وهنا نجد أن بن خلدون يصنف السياسات التي تحكم المجتمعات البشرية إلى سياسة شرعية (مستندة إلى شرع منزل) وسياسة عقلية مستندة إلى الحكمة والفطنة، وهو عندما يصنف هذه التصنيفات فإنه يقرر حجية استخدام السلطة للإجبار المادي المشروع من جهة، ومن جهة أخرى يقرر طبيعة ممارسة السلطة وهل هي مقيدة بالصالح العام أم لا.

ثم يقرر ابن خلدون بعد ذلك أن هذه القاعدة هي المطبقة في الحكم سواء كان في دولة إسلامية أم غير إسلامية ""وهذه السياسة التي يُحْمَل عليها أهل الاجتماع التي لسائر الملوك في العالم من مسلم وكافر"" [2].

وبذلك ينتهي بن خلدون إلى أن قوة النظام السياسي واستقراره يعتمد بشكل كبير الإستراتيجية أو الخطة العامة التي يضعها ويعمل بهديها والتي بموجبها يُجبَر المجتمع على الانقياد والانصياع له هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم ينسَ بن خلدون أن يحدد لنا مديات فلسفة النظام السياسي عندما عبر عنها بـ""المزاج الخاص"" في التعامل مع الرعايا قسوة أو رفقا ويتأثر الرعايا بهذه الفلسفة (المزاج) ويتفاعلون معه لأنهم تبع للدولة وللنظام فيرجعون إلى خُلُق الدولة طوعا لما في طباع البشر من تقليد متبوعهم أو كرها لما يدعو إليه خُلُق الدولة من الانقباض عن الترف [3].

1- المصدر نفسه ،ص229
2- المصدر نفسه ،ص230
3- جهاد تقي ،المصدر السابق ،ص131

الدورة البيولوجية

ويقدم هنا ابن خلدون شرحا وافيا لهذه الفلسفة وتغير أحوال وطباع المحكومين تبعا لتغير أحوال وطباع الحكام، كما يقدم رؤيته البيولوجية لدورة النظام السياسي عندما يناقش أطوار الدولة واختلاف أحوالها وخُلُق أهلها باختلاف سلوك الحكام تبعا لاختلاف الأطوار والأمر كله موقوف على فكرتي العصبية والصراع ، ويقسم مفكرنا هذه الأطوار إلى خمسة مراحل تبدأ بطور الظفر والاستيلاء وتنتهي بطور الإسراف والتبذير مرورا بأطوار الاستبداد والفراغ والقنوع، وبموجب هذه الأطوار يختلف سلوك النظام السياسي مع الرعايا تبعا لهذه الأطوار فمن مبدأ المشاركة والمساهمة في المجد والرفعة إلى حالة الإسراف والانغماس في الشهوات والملذات مرورا بحالة الاستبداد وإبعاد أهل العصبية ثم اصطناع الأنصار والموالين ثم تقليد السلف، وهنا يظهر هرم الدولة لتنتهي بطور الإسراف والتبذير أي طور الانغماس في الشهوات والملذات وهدم مابناه الأسلاف [1].

وعلى الرغم من أن بن خلدون قدم شروحاته هذه محللا العوامل السياسية والاجتماعية لدورته البيولوجية للنظام السياسي ونمط العلاقة بين الحكام والمحكومين، فانه في هذا لم ينسَ العامل الاقتصادي الذي يؤدي دوراً أساسياً في هذه الدورة وذلك حين يستبد صاحب الدولة بأهل عصبيته ويبعدهم عن الجاه ويتخذ الأعوان والأنصار ويُكْثِر عليهم العطاء فيعمد لتغطية نفقاته إلى زيادة الضرائب التي لاتقابل زيادة نفقاته فيصبح الخراج قليلا نسبة إلى النفقات فيعمد إلى حجب المال والعطايا للأنصار والأعوان والتنكر لهم ووبال هذا كله يعود على اضطراب أحوال الدولة وعدم واستقرار نظامها السياسي[2].

ويفسر إيف لاكوست هذا الانهيار للنظام السياسي بان العصبية هي البنية الاجتماعية السياسية التي تحدد الانتقال من المجتمع المساواتي اللاطبقي إلى المجتمع الطبقي، فليس من سلطة للارستقراطية القبلية إلا في الحد الذي تكون فيه

1- عبد الرحمن ابن خلدون ،المصدر السابق ،ص132-133- المصدر نفسه ،ص213
2- المصدر نفسه ،ص213

مندمجة في البنى المساواتية، وبمقدار ماتتقوى سلطات هذه الارستقراطية تظهر بوصفها طبقة متناقضة المصالح مع أعضاء القبيلة الآخرين وتتصدع بناها القبلية وهذا التصدع يستدعي إلى حد ما تقوية الطبقة صاحبة الامتيازات، فهي تبدأ ببسط سلطاتها على عملاء يصبحون تابعين وتأخذ حيازة بعض وسائل الإنتاج كالأراضي والماشية. إن هذا التحلل للبنى القبلية هو إلى حد ما تقدمي لأنه بداية الانتقال إلى نمط إنتاج أكثر فعالية وأكثر تطوراً لكن هذا التطور يكون معطلا لأن إطاره ليس مجمل سكان الدولة وإنما الطبقة الجديدة فقط والتي تشهد مقاومة عنيفة من مجمل السكان[1].

إن هذا الأمر يعني أن صاحب الدولة سوف يحتفظ بالسلطة اسمياً في حين أنها تُمارَس فعليا من قبل الموالين والمصطنعين (الطبقة الجديدة) وهذه هي بداية انهيار النظام عندما يقوم احد الموالين والمصطنعين بالانفراد بالسلطة والاستبداد بها معتمداً على عصبيته وأنصاره، وهنا تأخذ الدورة الاجتماعية مجراها في فكر ابن خلدون [2].

وبكلمة موجزة يمكن القول أن ابن خلدون في شروحاته للدولة والعصبية فانه قدم تفسيرا وتحليلا عميقا للنظام السياسي وعلاقاته بالمجتمع وإنْ لم يَرد مصطلح النظام السياسي في مقدمته أبدا إلا أنه كان يعبر عنه تارة بمصطلح الدولة وأخرى بمصطلح المُلك ومن ثم فان نزعته الفلسفية والعلمية كانت بحثاً فكرياً يستهدف إظهار القوانين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تؤثر في نشوء الدولة ونظامها السياسي وتطورهما.

1- ايف لاكوست ،المصدر السابق ،ص149
2- محمد عابد الجابري ،المصدر السابق ،ص350

المبحث الثاني
الصراع و السلطة السياسية

السلطة:

إن المطلع على مقدمة ابن خلدون يجد انه يولي موضوع السلطة اهتماماً كبيراً على الرغم من عدم ورود هذا اللفظ في مقدمته إذ انه يستعيض عنه بالسلطان تارةً وبالمُلك تارةً أخرى، وكما كان الحال في مسألة النظام السياسي فأن قضية السلطة في فكر ابن خلدون ترتبط بقضية الاجتماع الإنساني فهي الوازع (الحاكم) الذي لابد منه لأي اجتماع بشري، ولكي يستجيب الناس لهذا الوازع لابد له من امتلاك وسائل إجبار مادية ومعنوية يخضع لها الناس "إن هذا الاجتماع الإنساني ... لابد له من وازع يدفع بعضهم عن بعض ... فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لايصل احد إلى غيره بعدوان وهذا هو معنى المُلك"".[1]

اذن القوة هي الأساس الذي أراده ابن خلدون أن يكون سبباً ينتظم إليه المجتمع من خلال مبدأ الصراع الذي تكون العصبية العنصر الفاعل فيه، كما سنعرضه لاحقاً.

وعندما يحدد لنا ابن خلدون أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي المُلك [2]، فهو يميز بين السلطة السياسية (المُلك) بمعناها السياسي وبين السلطان والسيطرة (الرئاسة) بمعناها الاجتماعي أو السلطة بمعناها الاجتماعي العام مستنداً إلى المعيار الذي يستند إليه عنصر الإرغام في الحالتين فيقول إن " الرئاسة هي سؤدد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه" [3]، فصاحب الرئاسة هنا لا يمتلك عنصر الإرغام المادي وإنما عنصر الإرغام المعنوي نتيجة عدم التكافؤ بينه

1- عبد الرحمن محمد ابن خلدون ،المصدر السابق،ص35
2- المصدر نفسه،ص105
3- المصدر نفسه،ص105

وبين أبناء عصبيته أو قبيلته وما يمتلكه من فضل عليهم فيطيعونه نتيجة استشعارهم فضله عليهم [1]، لاسيما أن الرئاسة أو السيطرة توجد في المجتمعات الأولية أو الخاصة وليس في المجتمعات الشاملة أو المركبة [2]، فهي بهذا التوصيف تُعدُّ ظاهرة نفسية اجتماعية تسود المجتمعات الأولية(العائلة، العشيرة،القبيلة ...الخ).

أما السلطة السياسية (المُلك) فهي عند ابن خلدون "" أمر زائد على الرئاسة ... وهي التغلب والحكم بالقهر"" [3]، وهنا فان المُلك أو السلطة السياسية تمتلك عنصر الإجبار أو الإكراه المادي فضلاً عن عنصر الإجبار المعنوي.

وهكذا فان ابن خلدون يميز لنا بين السلطة السياسية التي تتجسد في الدولة أو النظام السياسي بما يمتلكه من وسائل الإجبار المادي المشروع وبين السيطرة والسلطان بمعناها الاجتماعي العام والتي تتجسد في سلطة شيخ العشيرة أو القبيلة أو في الهيئة الاجتماعية أو وجهاء العشيرة أو القبيلة.

وانطلاقا من الطبيعة البشرية المتمثلة بالحاجة إلى السلطة التي تقوم بمهمة ضبط وتنظيم سير الحياة في المجتمع يذهب ابن خلدون إلى إدراك العلاقة الوثيقة بين السلطة السياسية (المُلك) والسيطرة (الرئاسة) ، إذ إن القوى الاجتماعية التي تسيطر أو تسعى إلى السيطرة تحاول الاستحواذ على السلطة متى ما واتتها الفرصة، والسند الطبيعي لتحقيق هذا الهدف هو العصبية ""وصاحب العصبية إذا بلغ رتبة طلب مافوقها ، فإذا بلغ رتبة السؤدد والإتّباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لايتركه لأنه مطلوب للنفس، ولايتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعا فالتغلب الملكي غاية العصبية"" [4].

بيد أن بن خلدون بالرغم من اعتماده على نظرية القوة في إسناد السلطة إلا انه وانطلاقا من واقع الفكر الإسلامي جعل إلى جانبها مجموعة من القواعد

1- صادق الاسود،المصدر السابق ،ص104
2- المصدر نفسه ،ص28-29
3- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ،المصدر السابق،ص105
4- المصدر نفسه،ص105

الأصولية الشرعية لتقييد وإلزام السلطة السياسية أو النظام السياسي على السير بمقتضاها[1] ، ""لما كانت حقيقة المُلك انه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر ... كانت أحكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق ... فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها ... وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها"" [2]، ولما كان بن خلدون في بحوثه يركز على معالجة الظاهرة في المجتمع الإسلامي فإن ذلك يعني أن المجتمع ينبغي أن يكون محكوما بموجب السياسة الشرعية بالدرجة الأولى (بحسب فهمه).

مصدر السلطة:

وعند البحث عن مصدر السلطة في فكر ابن خلدون نراه يجعل مصدرها في نظرية العقد الاجتماعي تارة عندما يتناول حاجة الاجتماع الإنساني إلى وازع يحكمهم [3]، وتارة أخرى في نظرية الغَلَبَة والتنازع (الصراع) عندما تكون العصبية محور الوصول إلى السلطة [4]، وتارة ثالثة في نظرية الحق الإلهي عندما يرى ""الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية ... فهي خلافة عند صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به""[5].

الأمر الذي حمل بعض الباحثين على القول أن بن خلدون في هذه المسألة لم يكن صاحب نظرية بقدر ماكان مقرر واقع أحيانا، وناقل أراء أحيانا أخرى، إلا أنه بوصفه مفكرا إسلاميا فهو إلى نظرية الخلافة اقرب ودليلهم في ذلك هو تقسيماته لأنواع السياسات التي يسلكها الحكام في تدبير شؤون الرعية إلى سياسة شرعية وسياسية عقلية [6].

1- رياض عزيز هادي،المصدر السابق،ص216
2- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون،المصدر السابق،ص144
3- المصدر نفسه ،ص34-35
4- المصدر نفسه،ص105
5- المصدر نفسه،ص144
6- محمد عابد الجابري،المصدر السابق ،ص300-301

الصراع محور وجود النظام السياسي :

وغني عن البيان أن نظرية الصراع شكلت محوراً أساسيا في وجود النظام السياسي والسلطة السياسية وكانت العصبية العنصر الأساس الذي يساهم في خلق الظروف التي تؤدي إلى الصراع ثم إلى إحداث التغيير كما مثلت تجسيداً للعناصر الكامنة التي تعمل على إحداث هذا الصراع [1].

وعندما يتناول ابن خلدون الاجتماع الإنساني وحاجته إلى وازع ، ويعد الأخير من ضرورات الاجتماع الإنساني، فهو هنا يركز على السلطة المادية التي تتدرج من السلطة المعنوية لرئيس القبيلة إلى السلطة المادية لرئيس الدولة، والضرورة التي تستدعي وجود هذا الوازع هو الطبيعة الإنسانية المجبولة على الخير والشر والتعاون والعدوان.

والحاجة إلى الوازع إنما تفرضها الطبيعة العدوانية التي في البشر، والعدوان يعتمد دوماً على القوة والغَلَبَة ، فان الوازع الذي يراد به دفع العدوان لابد أن يكون هو الأخر قوة غالبة ويداً قاهرة وهنا يكمن منطق الصراع [2]، وبموجب هذا التطور تكون العصبية مجرد رابطة للدفاع وقوة للمواجهة ويكون العدوان الحافز الموقظ لهذه العصبية [3].

وربما ما ذهب إليه إيف لاكوست من أن العصبية شكل دقيق جداً من أشكال التنظيم السياسي دفع بعض الباحثين إلى القول أن اعتماد ابن خلدون على العصبية في تفسير حوادث التاريخ الإسلامي فانه لايتناولها إلا من جانب واحد هو مفعولها السياسي ومن ثم النتائج السياسية التي تترتب عليها [4].

فالعصبية تؤدي دورا كبيراً في نشوء المجتمع والدولة وهي الرابط المتحكم في قوة وضعف السلطة والنظام السياسي ومن ثم الدولة، فحركة التاريخ هي حركة

1- محمود محمد ربيع ،منهج ابن خلدون في علم العمران،مجلة مصر المعاصرة ، العدد340 نيسان 1970،ص21، نقلا عن رياض عزيز هادي ،المصدر السابق ،ص233
2- محمد عابد الجابري ،المصدر السابق ،ص226-227
3- المصدر نفسه ،ص249
4- المصدر نفسه،ص250

صراع ، ونشوء الدولة يمثل بداية لدورة تاريخية – سياسية تتجدد في كل مرة تنتهي فيها تلك الدورة والتي هي تعبير عن الصراع، ولما كانت الدولة هي تعبير عن القوة في فكر ابن خلدون فهي تصبح موضوعاً ثم ثمره لذلك الصراع الذي هدفه السلطة ووسيلته العصبية [1].

فالدولة إذن ليست ظاهرة عفوية وإنما ثمرة صراع فرضته الفاعلية السياسية للعصبية فضلا عن ضرورات الاجتماع الإنساني ومن ثم أضحت السلطة والمُلك وما يترتب عليها من امتيازات اقتصادية واجتماعية هدفاً لهذا الصراع ، هذا يعني بحسب فهم بن خلدون أن عملية الصراع تتضمن جوانب اقتصادية واجتماعية فضلاً عن جوانبها السياسية [2].

"" فالمُلك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالباً، وقل أن يسلمه أحد لصحابه إلا إذا غُلِبَ عليه فتقع المنازعة وتفضي إلى الحرب والقتال والمغالبة وشيء منها لايقع الا بالعصبية"" [3].

بيد أن هذا الصراع لايأخذ نمطاً وشكلاً واحداً وإنما يتدرج فيها محكوماً بقوانين السببية والتدرج، ليأخذ أشكالاً عدة تبدأ بالصراع بين البداوة والحضارة وتنتهي بالصراع بين دولة وأخرى مرورا بالصراع بين صاحب السلطة وعصبيته أو بين العصبية الحاكمة والعصبيات المحكومة، وعلى الرغم من اختلاف هذه الأشكال في أبعادها ومدياتها إلا أنها تشترك جميعاً في حقيقة واحدة وهي أنها تستخدم أو تهدد باستخدام القوة المادية في قيام الدولة ونشوئها [4].

وبكلمة موجزة فان العصبية في فكر ابن خلدون ليست مجرد شعور بالتضامن أو مجرد رابطة اجتماعية وإنما هي قاعدة سياسية لسلطة الحاكم وأداة

1- رياض عزيز هادي ،المصدر السابق ،ص233
2- المصدر نفسه،ص235
3- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ،المصدر نفسه ،ص116
4- علي الوردي ،المصدر السابق ،ص64 وص81-83

فريدة لنشوء الدولة إذ إن هدفها النهائي هو إقامة الدولة أو إقامة السلطة السياسية والنظام السياسي ، ومن هنا فان هدف الصراع سياسي في نتائجه [1].

وبهذا فان بن خلدون قدم رؤيته للنظام السياسي وللسلطة السياسية من خلال تناول موضوع الدولة وقوتها وانقراضها بتحليله لدور العصبية الاجتماعية والعوامل الاقتصادية والسياسية في نظرية الصراع التي كانت هاجسه في تحليلاته ونقطة توقفاته في أفكاره ومن هنا كانت ملامح النظام السياسي بادية في أفكاره .

1- رياض عزيز هادي ،المصدر السابق،ص241

الخـاتـمـــة

1. شكل المجتمع في فكر ابن خلدون الدائرة التي انطلق منها في بحث الجزئيات والفرعيات والمسببات وصولاً إلى النتائج ومن هنا كانت دقة وعمق أبحاثه التي ركزت على العوامل النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي بدورها أفرزت معطيات جديدة حددت شكل وطبيعة العلاقة الاجتماعية والاعتبارية بين الأفراد من جهة وبينهم وبين الزعامات القبلية أو المجتمعية من جهة أخرى .

2. بناءً على ذلك كانت نظرية العصبية في الفكر الخلدوني إحدى الركائز التي استند عليها في تحليل نقاط القوة أو الضعف في المجتمع من جهة ، وفي قوة السلطة المتحكمة في هذا المجتمع أو ضعفها من جهة أخرى . وعلى هذا الأساس انصب تركيزه على دراسة الدور السياسي الذي يمكن أن تؤديه العصبية في المجتمع والنتائج السياسية التي تترتب عنها، ولهذا السبب شكلت عقيدة التلاحم (العصبية) حجر الأساس في نشوء السلطة والنظام السياسي أو بالأحرى الجهاز الرسمي للسلطة وتحصيل الشرعية السياسية له .

3. وبهذا أضحت العصبية العنصر الأساسي الذي يساهم في خلق الظروف التي تؤدي إلى الصراع ثم إلى إحداث التغيير في المجتمع من منطلق أن الوازع الذي يراد به دفع العدوان لابد أن يكون هو الآخر قوة غالبة وبداً قاهرة وهو ما شكل منطق الصراع وهكذا أضحت العصبية رابطة للدفاع وقوة للمواجهة .

4. لم يغفل ابن خلدون اثر العوامل الأخرى كالدين والاقتصاد على قوة أو ضعف السلطة السياسية أو النظام السياسي عندما بحث تقلبات أحوال صاحب السلطة ومن ثم تغيير أحوال وطِباع المحكومين تبعاً لتغيير أحوال وطِباع الحكام ولم يخرج ذلك عن فكرتي العصبية والصراع ، إذ إن العصبية كانت القاعدة السياسية لسلطة الحاكم وأداة فريدة لنشوء الدولة وهدفها النهائي هو السلطة السياسية والنظام السياسي ومن هنا كان الصراع القائم سياسي في نتائجه .

المصادر

1- ايف لاكوست ، العلامة ابن خلدون ، ترجمة ميشال سليمان ،ط1،دار ابن خلدون ،بيروت 1974

2- جهاد تقي صادق ، الفكر السياسي العربي الاسلامي،ط1 ،مديرية دار الكتب ،بغداد 1993

3- رياض عزيز هادي ، مفهوم الدولة ونشوئها عند ابن خلدون ، مجلة العلوم القانونية والسياسية ، كلية القانون والسياسة ، جامعة بغداد ، العدد (3) ، السنة 1977 .

4- ساطع الحصري ، اراء واحاديث في التاريخ والاجتماع ،في ((الاعمال القومية لساطع الحصري)) ، مجلد 2، ط2 ،مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت 1990

5- ساطع الحصري ،دراسات عند مقدمة ابن خلدون ،دار المعارف ، مصر 1953

6- صادق الاسود ، علم الاجتماع السياسي ،مطابع جامعة الموصل 1986

7- عبد الحليم عويس ، الفكر الخلدوني في العصبية والعروبة ، سلسلة كتاب الأمة ، شبكة الاتصالات الدولية (الانترنت) ، الشبكة الإسلامية .

8- عبد الرحمن محمد بن خلدون ، تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر) ، ج1، ط1، دار ابن حزم ، بيروت 2003 .

9- علي الوردي ، منطق ابن خلدون ، ط2 ، دار كوفان ، لندن 1994 .

10- قسطنطين زريق ، في معركة الحضارة ، في " الأعمال الفكرية العامة " المجلد 2، ط3 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت 2001 .

11- محمد عابد الجابري ، فكر ابن خلدون – العصبية والدولة ، ط3، دار الطليعة ، بيروت 1982 .

12- محمد سعيد طالب ، ابن خلدون رائد الفكر الحديث ، ط1، الأهالي للطباعة والنشر ، دمشق 2001 .

Abstract

The theory of tribal fanaticism in Ibnu Khaldoon's thought was one of the bases on which he relied in analyzing weaknesses and strengths in community on the one hand, and those of the ruling authority on the other hand. Accordingly, he concentrated on the study of the political role that fanaticism in community might play and its political outcome. For this reason, fanaticism according to him, constituted the cornerstone in the evolution of authority and its political regime. Thus, this research tries to disclose the features of the political regime through analyzing Ibnu Kaldoon's thoughts.